المحاضرة09: الحضور الأسطوري في النص الشعري المعاصر.

إن العلاقة بين الأدب والأسطورة علاقة قديمة، فكم كان من الأساطير مصدر إلهام للفنان والشاعر، وكم من الأعمال الفنية والشعرية ما هو إلا صياغة جديدة لأسطورة من الأساطير القديمة، وربما استطاع باحث أو آخر أن يبين أن الأعمال الفنية التي استطاعت أن تعبر الزمن إلينا، محتفظة بقيمتها وأهميتها بالنسبة للإنسان في كل عصر وكل مكان، لم تظفر بهذه الطاقة الحيوية الدائمة إلا لأنها قد ارتبطت في جوهرها بالأسطورة.

ذلك أن الأسطورة ليست مجرد نتاج بدائي يرتبط بمراحل ما قبل التاريخ أو بعصور التاريخ القديمة في حياة الإنسان، وأنها لذلك لا تتفق وعصور الحضارة وإنما هي عامل جوهري وأساسي في حياة الإنسان في كل عصر وفي إطار أرقى الحضارات وفي إطار الحضارة الصناعية والمادية الراهنة مازالت الأسطورة تعيش بكل نشاطها وحيويتها، ومازالت مصدرا لإلهام الفنان والشاعر، بل لعلها في إطار هذه الحضارة أكثر فعالية ونشاطا منها في عصور مضت.[i]

ومن ثم فإن الحديث عن الأسطورة حديث قديم وهو يأخذ مكانه في الثقافة الإنسانية، لما لها من عمق في الذاكرة البشرية تلك التي تمنحها نظرة متميزة فهي « كلمة يحيطها سحر خاص، يعطيها من الامتداد ما لا يتوافر لكثير من الكلمات في أي لغة من اللغات، إذ توحي بالامتداد عبر المكان وعبر الزمان، والأسطورة بلورة الإنسان لعوالمه الشخصية والداخلية تلك التي امتزجت بالحلم و بكيفية تعامله مع معطيات الكون، فتسربت عبر حكايات تتجاوز ترتيبات العقل وتشب عن طوق الزمان والمكان الذي يحكم الأحداث بإسار من التوقيت »[ii].

ويبدو أن الظروف العالمية المعاصرة لم تعد تجد في المنهجين السردي والعقلي وسيلة كافية لتفهم كل المتناقضات التي تجعل من الحياة كومة من الأخلاط العجيبة الممزقة، وكأن الإنسان المعاصر صار يواجه الحياة مرة أخرى بنفس الوجه الذي رآها به في البداية يوم بدت له لغزا كبيرا وسرا رهيبا، حينئذ أحس بحاجته إلى المنهج الأسطوري القديم في وضع المعادلة الجديدة التي تجعل الحياة بالنسبة إليه مقبولة ومفهومة.[iii]

ولقد ساهم إليوت (T.S.Eliot)في نضج مفهوم الشعراء المعاصرين للأسطورة وجعل لها منهجا فنيا خاصا بها هو المنهج الأسطوري الذي يعرفه بأنه « طريقة خاصة لإضفاء شكل ومغزى على البانوراما الهائلة من العبث والفوضى التي هي" التاريخ المعاصر" طريقة لضبط هذه العناصر المتضاربة في نسق فني متناغم »[iv]، وهذه الطريقة الأسطورية أو المنهج الأسطوري هو الذي يجعل للشعر طابعا مميزا في باب المعارف الإنسانية يميزه عن الفلسفة وعن العلوم التجريبية ويجعله شعرا.

ولم يكن من المعقول أن يجد المنهج الأسطوري في الشعر العربي لدى الشاعر العربي لو لم يكن هذا الأخير متأهبا لأن يتلقاه ويستوعبه بطريقته الخاصة، لذا يمكن القول إن المرحلة التي شهدها الواقع العربي في منتصف الخمسينيات وبداية الستينيات قد ساهمت بشكل كبير في تأهيل الشاعر العربي للإحساس بالدراما والحس

التراجيدي في الأسطورة الغربية، مما جعله يقبل عليها ويجد فيها صدى لمعاناته في مواجهة الأزمة السياسية والأوضاع الاجتماعية والتعقيد الفكري.

خاصة وأن الأسطورة بطبيعتها « بطولة فردية خارقة تدور في توتر درامي مع قوى كونية خارقة طبيعية أو إلهية، وتدور الدراما في طابع تراجيدي مليء بالمآزق والمخاوف والأسى الشفاف والإحساس بالوحشة »[v]، مما يجعلها قريبة إلى نفس الشاعر العربي الذي تراكم في حسه آنئذ الألم من الهزائم ومن فشل أحلامه القومية، وتوطن لديه الشعور بصعوبة تكوين هوية خاصة مستقلة عن الآخر، ومن ثم أسهم هذا في استقباله للطبيعة الدرامية التراجيدية للأسطورة.

والأسطورة في الاستخدام الشعري العربي المعاصر، أضحت مجرد رموز متجاوبة فيما بينها «يجسم فيها الإنسان وجهة نظر شاملة في الحقيقة الواقعية »[vi]، وهي الوجوه التي يلتقي فيها الرمز بالأسطورة التي تكمن قيمتها بالنسبة للترميز الشعري في توحدها معه بما يعرف "باللاشعور الجمعي" أو "الصورة النمطية" للأمة، وأما ما يميز درامية الأسطورة فهو الارتباط بين الملحمية والواقعية؛ لأن الأسطورة «صورة عريضة ضابطة تضفي على الوقائع العادية في الحياة معنى فلسفيا، وهي في ذاتها تركيبة درامية، ودراما الأسطورة القديمة هي المحاولة الدائمة للربط بين العالمين الداخلي والخارجي »[vii].

ولقد كانت النظرة قديما لحقيقة دور الأسطورة نظرة درامية فقد استخدمها شعراء اليونان استخداما تراجيديا رائعا، والحق أنه يرجع الفضل إليهم في إحياء الأسطورة وصبها في قوالب درامية نابضة بالحياة، والسبب في اتكائهم عليها هو بعث التصورات عن الحياة بصورة رامزة لها، لأن الرمز في عالم الأسطورة إنما هو بمثابة «المدرك الفلسفي الذي يكشف عن حركة الديمومة وحركة الصراع التي تنطبع في الأشياء فتحيلها إلى مادة حية لا يمكن إدراكها بطريقة علمية تجريبية. »[viii]

ومهما تكن الرموز المستخدمة من طرف الشاعر ضاربة في التاريخ ومرتبطة عبر هذا التاريخ بالتجارب الأساسية النمطية، أي بوصفها رموزا حية على الدوام، فإنها حين يستخدمها الشاعر المعاصر لابد أن « تكون مرتبطة بالحاضر وبالتجربة الحالية وأن تكون قوتها التعبيرية نابعة منها وليست راجعة إليها»[ix]، والأسطورة كما الرمز هي فكر الإنسان وتجربته وأبعاد الخيال ليس عند الفرد وحسب؛ بل لدى الأمم، لذا ظلت قادرة على الحضور وظلت تتجدد وتقترب من الإنسان وتجاربه عبر عصوره المختلفة.

ولعل التعليل الذي ينطلق منه الأسلوب الدرامي في سياق الحدث، وسببية ربط الأحداث بعضها ببعض هو ما يسوغ في الوقت نفسه درامية الأسطورة، فالفكر الأسطوري المعاصر قد عرف كيف يصنع تعليلا يفسر به الأشياء، فقد أخذ بمنطق السبب والنتيجة، ولتلك العلاقة بين الإنسان وعالمه الداخلي والخارجي وما يربطه بقدره وخطه في الحياة وصراع السيطرة جاء تعبير « التصور الأسطوري درامي يقوم على أساس من الصراع المحتوم بين الإنسان والقدر... ولما كانت مادة الأسطورة مادة ديناميكية حية، اتجه الشعراء إلى أن ينحتوا أشكالهم الدرامية من هذه المادة .»[x]

والمتأمل في أعمال شعرائنا المعاصرين يلحظ أن أبرز الرموز الأسطورية وأكثرها دورانا في أعمالهم هي شخوص السند بادوسيزيف وتموز وعشتار وهابيل وقابيل وأيوب وإنيسياس والخضر وعنترة وعبلة وشهريار وهرقل والتتار والسيرين وسقراط وغيرها من الشخوص الأسطورية الشرقية والغربية، إلى جانب هذا يستلهمون أحيانا الأسطورة القديمة في مجملها من حيث هي تعبير قديم ومغزى معين كاستلهام أسطورة أو أديب وأبي الهول وقصة بنيلوب وأوليس... وغيرها.

ومن هذه الأهمية لها أصبحت ذات طبيعة تعلو فوق أي عصر بذاته وأي شخص بعينه، وقد اكتسبت لنفسها تلك الصفة المطلقة- لازما نية ولا مكانية- لتصبح حاضرة دائما في كل زمان ومكان، وكأنها تذكرنا بذلك العود الأبدي الذي تحدثت عنه الفلسفة بشتى منابعها، ولقد ظلت الآداب والفنون تنهل من روح الأساطير عبر العصور التاريخية المختلفة، لأن الأسطورة في الواقع تعبر عن خيال الأمة وتطلعها نحو المثل الكوني الرائع.

ولقد اختلف الشعراء العرب في درجة وعيها، حيث خلط بعضهم بينها وبين الملحمة، وآخرون لم يفرقوا بينها وبين الموروث الشعبي وفئة ثالثة خلطتها بالسير الشعبية، ومنهم من حصرها بقصص القرآن الكريم عن الأمم الغابرة.[xi] ومهما يكن فإن الأسطورة تعد عنصرا أساسيا في الأدب، وإن اهتمام الشعراء بها كان ملحوظا ومستمرا منذ زمن هوميروس، فلم تكن الأسطورة بالنسبة لصناعها محاكاة فعل، وإنما هي فعل ممتد في المستقبل على أنه حال من الترقب الدائم لما يقع أو انتظار لما يأتي.

أما الأسطورة من الناحية الشكلية فتسلك منحى حكائيا وقصصيا كإطار درامي لأحداثها لأن « عنصر القص فيها أكثر وضوحا، بل هي الشكل القصصي للرموز النمطية العليا »[xii]، وأداء الأسطورة يعتمد النظام السردي للأحداث للذي يقود إلى ذروة المصائر والأحوال لأبطالها في أقصى درجة من الهلامية والخيال، وإن كانت العناصر والمكونات الواقعية والأسطورية على السواء تسبق السرد بالضرورة، وهي لا تكتسب فاعليتها كعناصر مكونة إلا عن طريق إعادة صياغتها أثناء عملية السرد.

وقد يبدو هنا أمر ملح هو واقعية الأسطورة بسبب مجافاة مضمونها للمنطقي والمعقول من مسلمات الحياة وهو ما يستبعد كونها حدث وقع بالفعل، فهي لدى بعض الدارسين والنقاد واقعة أدبية وسردية أكثر منها صلة بحقيقة الواقع الفعلي، إذ يشير بعض الكتاب إلى ما يسمونه خاصية "التعالي" ويقصدون بها الارتفاع أو التخلص والإفلات من قيود الزمان والمكان والتجربة اليومية وتحديداتها وذلك فضلا عن التشابه والتماثل بين شخصيات القصص الأسطوري.[xiii]

لذا فإن استحضار الأسطورة كقصة أو توظيف شخوصها في التجربة الشعرية أمر ليس ميسرا للجميع، إذ قليل من الشعراء من « يحسنون استغلال الأسطورة في شعرهم، لأن المقصود منها ليس هو الإتيان بحكاية قد تسر وقد تحزن، ولكن هو أن تكون هذه الأسطورة إطارا عاما يضمن للشاعر العمق الذي يريد ويضفي على

قصيدته نوعا من الواقعية التاريخية »[xiv] وعدم مباشرة مضمون حكي الأسطورة للواقع، لا ينفي كونها تشير إلى بعض ما يحدث في الواقع، وإن حملت هذه الإشارة بعدا خياليا.

وامتلاء اللغة بمفهوم الأسطورة هو ذاك المفهوم الذي يحمله الشكل كعلاقة دالة على ما فيه، وهذا التصور قد يمنح جانبا من الصواب رأي من يذهبون إلى أن واقعية الأسطورة لا تتجاوز الشكل الكتابي، لأنها منظومة كتابة رمزية بحتة، حيث تظل الأشكال معللة من خلال المفهوم الذي تمثله، وهو ما يعني بصفة أخرى اعتباطية الدلالة والمفهوم في الأسطورة، لارتباطها بمفهومية اللغة.[xv]

ولهذه العلاقة بين اللغة والأسطورة، ينبغي أن تحمل الشخصيات الأسطورية في السياق الشعري ملامح الشخصي والعام أو بعبارة أدق الفردي والجمعي فإذا هي فقدت في السياق الشعري هذه القدرة، فقدت وجودها الرمزي وفقدت نتيجة لذلك تأثيرها الشعري المنشود، وباختصار إن «الاستعمال الجيد للأسطورة يعني قدرة القارئ على الانفعال بالعبارة حتى وإن لم يلم بالأسطورة... وهكذا صنع إليوت (T.S.Eliot)في شعره فأتاح لقرائه أن يتجاوبوا معه شعريا دون أن يكونوا ملمين بأصول كل الإشارات الأسطورية والرمزية التي وردت في شعره.»[xvi]

وعليه فإن ارتباط الشعر بالأسطورة يأتي من طبيعة الأداء، وكيفية التوظيف للمادة والموضوع، فإذا ما رجعنا لنشأة هذا الارتباط فإن الشعر في نظر القدامى من النقاد عرف بأنه رجع لترانيم من السحر كان يرقى بها الشاعر ذاته، وقد ارتبط بالجن وبإيحاء الجن للشعراء، وهذه السمة هي وجه من أهم وجوه الأسطورة ناهيك عن أن الشاعر كان يتوجه بخطابه الشعري نحو المجهول.

وبالمقابل كانت أقدم الأساطير في أصلها غناء، ثم تحول هذا الغناء مع تطور الوعي الإنساني إلى ملاحم شعرية، إذ لابد أن تصبح الأسطورة بعد مرحلة ما، كلاما موزونا أو أناشيد ذات إيقاع خاص، ويظل لها هذا الطابع بعد أن تتحول إلى حكاية عن الآلهة والكون، والتاريخ يقرر أن أقدم الأساطير كانت غناء دينيا ثم ملاحم شعرية.[xvii]

وقد أضفى الشعر بذلك على الأسطورة مسحة من الحيوية والخلود، ومن جانب آخر فإن الشعر يحاول أن يرسم خطاه للتواءم مع المجتمع من خلال نشدان المثال في الرؤية للحياة ونظرة العالم، ويأتي دور الشاعر المعاصر ليؤكد استشفافه لطبيعة الصراع في الحياة، على أن الشعر بعد ذلك أو قبله يظل الميدان الحقيقي للأساطير «فخلف كل لغة شعرية، حتى ولو كان الشعر جاء عن تجربة ذاتية في صورة غنائية ترقد طبقة من الإشارات والرموز الأسطورية، ويترتب قدر من لغة الإنسان الأول ».[xviii]

والشاعر المعاصر وإن كان يتجه إلى الأسطورة ليخفف من غنائية التجربة فهو يتجه إلى ذلك لا بصورة مباشرة، وإنما « يطلق مخيلته في خلق أسطورته ورموزه وأقنعته ليقص من خلالها بما يعادل الحالة التي يريد التعبير عنها، لا بما يساويها مباشرة أو يفسرها معنويا »[xix] والشاعر بارتياده منطقة التجريد والغموض كذلك، يجد في

الجدل الواسع في الأسطورة بين الحقيقي والمتخيل مادة خصبة، وهذا القلق والتوتر بين المثبت والمغيب هو بغية الشاعر المعاصر.

خاتمة:

وعليه فإن العلاقة بين الأسطورة والرمز والشاعر المعاصرتتوطد عن طريق معرفته للمعلومات التاريخية للأسطورة وبنيتها التكوينية وكذا دراسته وخبرته بأنواع الأسطورة وأعرافها وأن لا يوظفها تقليدا لشكلها القديم وإنما ليكشف بها عن واقعة المعاصر، كما أن تضمين العمل الشعري حدثا أسطوريا أو شخصية أسطورية إنما يراد به إحضار مضمونها لتكون عنصرا يدخل في مكونات التجربة الشعرية دون أن يكون القصد من ذلك الزخرف أو استعراض الثقافة.

نستطيع القول إذن إن طبيعة الاستخدام الفني للرمز والأسطورة في النص الشعري العربي المعاصر يخضع لمقاييس محددة شأنه في هذا شأن سائر الوسائل الفنية الأخرى التي استحدثها الشاعر المعاصر كالرموز والقناع والتضمين وغيرها، فكلاهما تعبير بواسطة صور تحمل دلالة مكثفة وتطلق شحنات شعورية في التجربة الجديدة وهما في النهاية تضمين يراد به استحضار الدلالة القديمة بصورة جديدة.